

## ثالثاً: إضاءات في أول الطريق

### ١- سِتُّ ركائز أساسية:

(قال بعضُ الأوائِلِ: لا يتمُّ العلمُ إلا بستةِ أشياء: ذهنٌ ثاقبٌ، وزمانٌ طويلٌ، وكفايةٌ، وعملٌ كثيرٌ، ومعلِّمٌ حاذقٌ، وشهوةٌ، وكلُّما نقصَ من هذه الستةِ شيءٌ، نقصَ بمقداره من العلمِ.

وذكرَ الشهوةَ؛ لأنَّ النفسَ إذا اشتَّهتَ الشيءَ، كانتَ أسمحَ في طلبه، وأنشطَ لالتماسه.

وذكرَ الكفايةَ؛ لأنَّ التكسُّبَ، وتعدُّرَ المعاشِ مَقْطَعَةٌ... والحاجةُ تميَّتُ النفسَ.

وذكرَ المعلِّمَ الحاذقَ؛ لأنَّه إذا لم يكنْ حاذقاً، لم يحلِّ المتعلِّمُ منه بطائلٍ<sup>(١)</sup>.

وذكرَ ثقبَ الذهنِ؛ لأنَّه علةُ القبولِ؛ وسببُ الفهمِ.

وذكرَ كثرةَ العملِ؛ لأنَّ مَنْ لا يدأبُ في الطلبِ وقتَ الفراغِ، وقوةَ الشبابِ، قَطَعَتْهُ القواطعُ<sup>(٢)</sup>.

(١) لم يحلَّ بطائل أي: لم يظفر ولم يستفد منها كبيرَ فائدة (لسان العرب، لابن منظور) (١٩١/١٤).

(٢) (الحث على طلب العلم، للعسكري، بتصرف) (ص ٤٧ - ٤٩).

## ٢- من سار على الدرب وصل:

رَحِمَ اللهُ الزرنوجيَّ حيثُ قالَ: (فلَمَّا رأيتُ كثيراً مِنْ طلابِ العلمِ في زماننا، يَجِدُّونَ إلى العلمِ، ولا يَصِلُونَ، وَمِنْ منافعِهِ، وثمراتِهِ، يُحرمونَ؛ لما أَنَّهُم أخطؤوا طرائقَهُ، وترَكوا شرائطَهُ، وكلُّ مَنْ أخطأَ الطريقَ ضلَّ، ولا ينالُ المقصودَ قلَّ أو جَلَّ) (١).

قال شيخُ الحنابلةِ في عصرِهِ ابنُ بدرانَ: (اعلمَ أنَّ كثيراً مِنَ الناسِ يَقضونَ السنينَ الطوالَ في تعلُّمِ العلمِ، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يحصلونَ منه على طائلٍ، ورُبَّما قَضَوْا أعمارَهُم فيه، ولم يَرْتَقُوا عن درجَةِ المبتدئينَ، وإِنَّمَا يكونُ ذلكَ لأحدِ أمرينَ:

أحدهما: عدمُ الذكاءِ الفطريِّ، وانتفاءُ الإدراكِ التصوريِّ، وهذا لا كلامَ لنا فيه، ولا في علاجِهِ. والثاني: الجهلُ بطُرُقِ التَّعليمِ) (٢).

## ٣- التلقِّي من أفواه العلماء:

ما أحسنَ توجيهَ الزرنوجيِّ لطلابِ العلمِ حينَ قالَ: (ويَنبغي لطلابِ العلمِ، أن لا يَحْتارَ نوعَ العلمِ بنفسِهِ، بل يفوضُ أمرَهُ إلى الأستاذِ؛ فَإِنَّ الأستاذَ قد حصلَ له التجاربُ في ذلكَ، فكانَ أعرفَ بما يَنبغي لكلِّ أحدٍ، وما يليقُ بطبيعَتِهِ، وكانَ الشيخُ.. برهانُ الدينِ يقولُ رَحِمَهُ اللهُ: كانَ طلبَةُ العلمِ في الزمنِ الأولِ يُفوضونَ أمرَهُم في

(١) (تعليم المتعلم، للزرنوجي) (ص٢).

(٢) (المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، لابن بدران) (١/٢٦٥).

التعلم إلى أستاذهم، فكانوا يصلون إلى مقصودهم، ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم، فلا يحصل مقصودهم من العلم، والفقهاء<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ بكر أبو زيد:

(الأصل في الطلب، أن يكون بطريق التلقين، والتلقي عن الأساتيد، وقد قيل: من دخل في العلم وحده؛ خرج وحده. أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ؛ خرج منه بلا علم؛ إذ العلم صنعة، وكلُّ صنعة تحتاج إلى صانع، فلا بدَّ إذا لتعلمها من معلمها الحاذق.

وكان أبو حيان كثيراً ما يُنشد:

يظنُّ العَمْرُ أَنَّ الكُتُبَ تَهْدِي      أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ العُلُومِ  
وما يَدْرِي الجُهولُ بَأَنَّ فِيهَا      غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الفَهْمِ  
إِذَا رُمَتْ العُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ      ضَلَّتْ عَنِ الصِّرَاطِ المَسْتَقِيمِ  
وتَلْتَبِسُ الأُمُورُ عَلَيْكَ حَتَّى      تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُومَا الحَكِيمِ<sup>(٢)</sup>

ذَكَرَ الشَّاطِئِيُّ فِي مَعْرُضِ حَدِيثِهِ عَنِ اتِّفَاقِ النَّاسِ عَلَى إِفْتِقَارِ  
الجَاهِلِ إِلَى المَعْلَمِ، قَوْلَ بَعْضِهِم: (إِنَّ العِلْمَ كَانَ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ  
انْتَقَلَ إِلَى الكُتُبِ، وَصَارَتْ مَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ).

قال الشاطبي معلقاً على ذلك: (وهذا الكلام يقضي بأن لا بدَّ في  
تحصيله من الرجال؛ إذ ليس وراء هاتين المرتبتين مرمى عندهم، وأصلُّ

(١) (تعليم المتعلم) (ص ١٠).

(٢) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، بتصرف) (ص ٢٤، ٢٢).

هذا في الصحيح: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ...)) الحديث<sup>(١)</sup>، فإذا كان كذلك؛ فالرجالُ هم مفاتيحُه بلا شك<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - انظر.. عمن تأخذ دينك ؟

قال الزرنوجي: (يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارَ الْأَعْلَمَ، وَالْأَوْرَعَ، وَالْأَسَنَّ، كَمَا اخْتَارَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَّادَ بْنَ سَلِيمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَعْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ، وَقَالَ: وَجَدْتُهُ شَيْخًا، وَقَوْرًا، حَلِيمًا، صَبُورًا. وَقَالَ: ثَبِتُ عِنْدَ حَمَادِ بْنِ سَلِيمَانَ فَنَبِتُ)<sup>(٣)</sup>.

قال مالك: (لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَرْبَعَةٍ، وَيُؤْخَذُ مِنْ سِوَى ذَلِكَ: لَا يُؤْخَذُ مِنْ سَفِيهِ مَعْلِنٍ بِالسَّقْفِ، وَإِنْ كَانَ أَرْوَى النَّاسِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ كَذَّابٍ، يَكْذِبُ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِذَا جُرِّبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُتَّهَمُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا مِنْ صَاحِبِ هَوَى يَدْعُو النَّاسَ إِلَى هَوَاهُ، وَلَا مِنْ شَيْخٍ لَهُ فَضْلٌ، وَعِبَادَةٌ، إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَا يُحَدِّثُ)<sup>(٤)</sup>.

قال ابنُ جماعة: (يَنْبَغِي لِلطَّالِبِ أَنْ يَقْدَّمَ النَّظَرَ، وَيَسْتَخِيرَ اللَّهَ فِيمَنْ

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) (الموافقات، للشاطبي) (١/١٤٠).

(٣) (تعليم المتعلم، للزرنوجي) (ص٦).

(٤) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (١/٢١٢).

يأخذ العلمَ عنه، ويكتسبَ حسنَ الأخلاقِ، والآدابَ منه، وليكنَ إنْ أمكنَ ممنْ كملتْ أهليتهُ، وتحققتْ شفقتهُ، وظهرتْ مروءتهُ، وعُرفتْ عِفتهُ، واشتهرتْ صيانتُهُ، وكانَ أحسنَ تعليماً، وأجودَ تفهيماً، ولا يرغبُ الطالبُ في زيادةِ العلمِ، معَ نقصٍ في ورعٍ، أو دينٍ، أو عدمِ خلقٍ جميلٍ، فعن السلفِ: (هذا العلمُ دينٌ، فانظروا عمنْ تأخذون دينكم) (١).

قال جعفرُ بنُ محمدٍ: (إذا رأيتمُ العالمَ محباً لدُنياه؛ فأنهيموه على دينكم، فإنَّ كلَّ محبٍّ لشيءٍ يحوطُ ما أحبَّ) (٢).

قال الذهبيُّ: (قرأتُ بخطَّ الشيخِ الموفقِ قال: سمعنا درسَه - أي: ابنِ أبي عَصْرُونَ - معَ أخي أبي عمرَ وانقطعتنا، فسمعتُ أخي يقولُ: دخلتُ عليه بعدُ، فقال: لِمَ انقطعتُم عني؟ قلتُ: إنَّ أناساً يقولون: إنَّك أشعريُّ، فقال: واللهِ ما أنا أشعريُّ. هذا معنى الحكاية) (٣).

## ٥- اتباع خير القرون:

أوصى الإمامُ شيخُ الإسلامِ أبو عمرو الأوزاعيُّ تلميذه بقيَّةَ بنَ الوليدِ بوصيةً، فقال: (يا بقيَّةُ، العلمُ ما جاءَ عن أصحابِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم، وما لم يَجِئْ عن أصحابِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم، فليسَ بعلمٍ، يا بقيَّةُ لا تذكرُ أحداً من أصحابِ محمدٍ نبيِّك صلى اللهُ عليه وسلم إلا بخيرٍ، ولا أحداً من أمَّتِكَ، وإذا سمعتَ أحداً يقعُ في غيره، فاعلمُ أنَّه

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص ٨٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١/٦٧٠).

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٢٩/٢١).

إِنَّمَا يَقُولُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ<sup>(١)</sup>.

قال مالكٌ وقد ذكِرَ له كتابُه الموطأُ: (فيه حديثُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وقولُ الصحابةِ والتابعينَ ورأيهم، وقد تكلمتُ برأبي على الاجتهادِ، وعلى ما أدركتُ عليه أهلَ العلمِ ببلدنا، ولم أخرجُ عن جملةِهم إلى غيرِه)<sup>(٢)</sup>.

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: (إذا كان في المسألةِ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم حديثٌ؛ لم نأخذُ فيها بقولِ أحدٍ من الصحابةِ ولا من بعدهم خلافةً، وإذا كان في المسألةِ عن أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قولٌ مختلفٌ، نختارُ من أقاويلهم، ولم نخرجُ عن أقاويلهم إلى قولٍ من بعدهم، وإذا لم يكنُ فيها عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، ولا عن الصحابةِ قولٌ، نختارُ من أقوالِ التابعينِ)<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (كن سلفياً على الجادةِ، طريقِ السلفِ الصالحِ من الصحابةِ رضي اللهُ عنهم، فمن بعدهم ممن قفا أثرهم في جميعِ أبوابِ الدينِ، من التوحيدِ، والعباداتِ، ونحوها، متميزاً بالتزامِ آثارِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وتوظيفِ السننِ على نفسك، وتركِ الجدالِ، والمراءِ، والخوضِ في علمِ الكلامِ، وما يجلبُ الآثامَ، ويصدُّ عن الشرعِ)<sup>(٤)</sup>.

(١) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (١/٧٦٩).

(٢) (ترتيب المدارك، للقاضي عياض) (٢/٧٣).

(٣) (المسودة، لآل تيمية) (١/٢٧٦).

(٤) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص٨).

## ❖ طبقات العلم:

روى نوح الجامع، عن أبي حنيفة أنه قال: (ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة اخترنا، وما كان من غير ذلك، فهم رجال ونحن رجال) (١).

وقال الشافعي: (العلم طبقات:

الأولى: الكتاب والسنة، إذا ثبتت السنة.

ثم الثانية: الإجماع، فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

والثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولا

نعلم له مخالفاً منهم.

والرابعة: اختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي

عنهم.

والخامسة: القياس على بعض هذه الطبقات، ولا يُصار إلى شيء

غير الكتاب والسنة، وهما موجودان، وإنما يُؤخذ العلم من أعلى) (٢).

(قال الربيع: سمعت الشافعي يقول، وسأله رجل عن مسألة فقال:

يُروى عن النبي أنه قال كذا وكذا. فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول

بهذا؟ فارتعد الشافعي، واصفرَّ، وحال لونه، وقال: وَيْحَكَ، أي أرض

ثقلني وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني، إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (٤٠١/٦).

(٢) (المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي) (١١٠/١).

شيئاً فلم أقلّ به؟ نعم، على الرأسِ والعينِ<sup>(١)</sup>.

وقال الإمامُ أحمدُ: (إيّاك أن تتكلّمَ في مسألةٍ، ليس لك فيها إمامٌ)<sup>(٢)</sup>.

وقال ابنُ رجبٍ: (وفي زماننا يتعينُ كتابةُ كلامِ أئمةِ السلفِ المقتدى بهم إلى زمنِ الشافعيِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ، وأبي عبيدٍ، وليكنِ الإنسانُ على حذرٍ مما حدّث بعدهم؛ فإنّه حدّثَ بعدهم حوادثُ كثيرةٌ، وحدّثَ من انتسبَ إلى متابعةِ السنةِ والحديثِ، وهو أشدُّ مخالفةً لها؛ لشذوذه عن الأئمةِ، وانفراذه عنهم بفهمٍ يفهمه، أو يأخذُ ما لم يأخذُ به الأئمةُ من قبله)<sup>(٣)</sup>.

وقال أيضاً: (وفي كلامهم - أي: السلفِ - كفايةٌ وزيادةٌ، فلا يُوجدُ في كلامٍ من بعدهم من حقٍّ، إلا وهو في كلامهم موجودٌ، بأوجزٍ لفظٍ، وأخصرِ عبارةٍ، ولا يوجدُ في كلامٍ من بعدهم من باطلٍ، إلا وفي كلامهم ما يبيّنُ بطلانه لمن فهمه وتأمّله، ويوجدُ في كلامهم من المعاني البديعةِ، والمآخذِ الدقيقةِ، ما لا يهتدي إليه من بعدهم، ولا يُلمُّ به، فمن لم يأخذِ العلمَ من كلامهم فاتّه ذلك الخيرُ كلُّه، مع ما يقعُ في كثيرٍ من الباطلِ، متابعةً لمن تأخّر عنهم)<sup>(٤)</sup>.

(١) (طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي) (١٣٨/٢).

(٢) (مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي) (ص١٧٨).

(٣) (بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب، بتصرف) (ص٦٩).

(٤) (بيان فضل علم السلف، لابن رجب) (ص٦٨).

## ٦- الزم قولاً.. ولا تتشوش:

على الطالب (أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء، أو بين الناس مطلقاً في العقليات، والسمعيات؛ فإنه يُحيرُ الذهنَ ويدهشُ العقلَ، بل يتقنُ أولاً كتاباً واحداً، في فنٍّ واحدٍ، أو كتباً في فنونٍ إن كان يحتملُ ذلك.

أمّا إذا تحققت أهلية المتعلم، وتأكدت معرفته، فالأولى أن لا يدعَ فناً من العلوم الشرعية إلا نظر فيه، فإن ساعده طول العمر على التبخر فيه، فذاك، وإلا فقد استفاد منه ما يخرج به من عداوة الجهل بذلك العلم، ويعتني من كل علم بالأهم فالأهم، ولا يغفلن عن العمل الذي هو المقصود بالعلم<sup>(١)</sup>.

## ٧- خطوة.. خطوة:

التدرُّج في طلب العلم وحفظه أمر مهم، فلا يستعجل طالب العلم الثمرة، فيعاقب بالحرمان، وما يأتي سريعاً يذهب سريعاً. قال الزهريُّ ليونسَ بن يزيد: (يا يونس، لا تكابر العلم؛ فإن العلم أودية، فأيتها أخذت فيه، قطع بك قبل أن تبلّغه، ولكن خذ مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من رام أخذ جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام)<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عبد البر: (طلب العلم درجات، ومناقل، ورتب، لا ينبغي

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص ١١٦ - ١٢٠).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (٤٣١/١).

تعدّيها، ومَنْ تعدّاها جملةً فقد تعدّى سبيلَ السلفِ رحِمهم اللهُ، ومَنْ  
تعدّى سبيلهم عامداً ضلّ، ومَنْ تعدّاه مجتهداً زلّ<sup>(١)</sup>.

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (فأمامك أمورٌ لا بدَّ من مراعاتِها في كلِّ  
فنٍ تطلبُه:

- حفظٌ مختصرٌ فيه.
- ضبطُه على شيخٍ متقنٍ.
- عدمُ الاشتغالِ بالمطولاتِ وتفاريقِ المصنفاتِ قبلَ الضبطِ  
والإتقانِ لأصله.
- لا تنتقلُ من مختصرٍ إلى آخرٍ بلا موجبٍ، فهذا من بابِ  
الضجرِ.
- اقتناصُ الفوائدِ والضوابطِ العلميةِ.
- جمعُ النفسِ للطلبِ والتّرقّيِ فيه، والاهتمامُ والتحرُّقُ للتحصيلِ  
والبلوغِ إلى ما فوقه<sup>(٢)</sup>.

### ❖ خذ بقدر ما تطيق:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (ولا يأخذُ الطالبُ نفسه بما لا يطيقه، بل  
يقتصرُ على اليسيرِ الذي يضبطُه، ويحكمُ حفظَه ويُتقنه.  
قال إسماعيلُ بنُ عُلَيَّةَ: كنتُ أسمعُ من أئوبَ خمسةً، ولو حدّثني  
بأكثرَ من ذلك ما أردتُ).

(١) (المصدر السابق) (٢/١١٢٩).

(٢) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص ١٨ - ١٩).

قال سُفيانُ الثوريُّ: كنتُ آتي الأعمشَ ومنصوراً، فأسمعُ أربعةَ أحاديثَ، خمسةً، ثم أنصرفُ، كراهةً أن تكثُرَ وتَفَلَّتَ.

وعن شُعبةَ قال: كنتُ آتي قتادةَ، فأسألهُ عن حديثين، فيحدثني، ثم يقولُ: أزيدُك؟ فأقولُ: لا، حتى أحفظَهما وأتقنَهما<sup>(١)</sup>.

## ٨- ابدأ بالأوّلِي، فالأوّلِي:

من توجيهات أبي العباس بن قدامة المقدسيّ لطالب العلم المبتدئ، قوله:

(ابتدئْ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثم بسنَّةِ رسوله صلى اللهُ عليه وسلَّم، ثم بعلومِ القرآنِ مِنَ التفسيرِ ومن ناسخٍ ومنسوخٍ، ومحكمٍ ومتشابهٍ، إلى غيرِ ذلك، وكذلك في السنة، ثم اشتغلْ بالفروعِ وأصولِ الفقه، وهكذا بقيَّةُ العلومِ على ما يتسعُ له العمرُ، ويساعدُ فيه الوقتُ، ولا تستغرقْ عمرَكَ في فنٍّ واحدٍ منها؛ طلباً للاستقصاء؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ والعمرَ قصيرٌ)<sup>(٢)</sup>.

قال الزبيديُّ نقلًا عن صاحبِ الذريعةِ: (يجبُ أن لا يخوضَ طالبُ العلمِ في فنٍّ حتى يتناولَ مِنَ الفنِّ الذي قبله على الترتيبِ بُلغته، ويقضي منه حاجته، فزدحامُ العلمِ في السمعِ مضلةُ الفهم... فيجبُ أن يقدمَ الأهمَّ فالأهمَّ، من غيرِ إخلالٍ في الترتيبِ، وكثيرٌ مِنَ الناسِ مُنعوا الوصولَ لتركيهمِ الأصولَ؛ وحقُّه أن يكونَ قصدهُ من كلِّ علمٍ يتحرَّاه، التبُّلُّغُ به

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب، بتصرف) (٣٥٤/١ - ٣٥٦).

(٢) (مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة) (ص ٣٠ - ٣١).

إلى ما فوقه، حتى يبلغ النهاية<sup>(١)</sup>.

## ٩- مراحل التعلم:

(كان المأمون يُوصي بعضَ بنيه، فيقول: اكتب أحسنَ ما تسمعُ، واحفظ أحسنَ ما تكتبُ، وحدِّث بأحسنِ ما تحفظُ)<sup>(٢)</sup>.

وقال ابنُ المبارك: (أولُّ العلمِ النيةُ، ثم الاستماعُ، ثم الفهمُ، ثم الحفظُ، ثم العملُ، ثم النشرُ)<sup>(٣)</sup>.

## ١٠- أدوات تحصيل العلم:

### أ- السماع والكتابة:

قال بعضهم: (كنتُ عندَ بعضِ العلماءِ، فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً، وأدعُ بعضاً، فقال لي: اكتب كلَّ ما تسمعُ، فإنَّ أحسنَ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض)<sup>(٤)</sup>.

قال الشيخُ عبدُالكريمِ الخضير: (التجربةُ أثبتتُ أنَّه كلما سهلَ الحصولُ على الكتابِ، أو على المعلومةِ ضعفتِ الإفادةُ.

خشيتُ العلماءَ على التحصيلِ من جرَّاءِ الطباعةِ؛ فأفتى علماءُ الأزهرِ بتحريمِ طباعةِ الكتبِ الشرعيةِ، فأذِنوا بطباعةِ كتبِ التاريخِ والأدبِ واللغةِ وغيرها، أمَّا الكتبُ الشرعيةُ فلا، وكان طالبُ العلمِ في

(١) (إتحاف السادة المتقين، للزبيدي، بتصرف) (١/٥٤٣).

(٢) (تقييد العلم، للخطيب البغدادي) (ص ١٤١).

(٣) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (١/٤٧٦).

(٤) (الحيوان، للجاحظ) (١/٥٨).

السابق إذا احتاج إلى كتاب، اضطرَّ إلى نسخه.  
ومعاناة الكتابة أفضل من القراءة مراراً، فأنت إذا احتجت إلى كتاب، لا بدَّ أن تكتب الكتاب، أو تستعيره، وتنسخه، أو تُدوّن ما يهْمُك منه، هل هذا مثل أن تذهب إلى مكتبة وتشتري كتاباً، وترصّه مع إخوانه في الأدرج؟! (١).

قال الفِرَبْرِيُّ: (كنتُ مع محمد بن إسماعيل بمترله ذات ليلة، فأحصيتُ عليه أنه قام، وأسرج، يستذكرُ أشياءً يعلّقها في ليلة، ثمان عشرة مرة) (٢).

وحكى الحميدي عن الشافعيّ لما كانا بمصر، أنه كان يخرج في بعض الليالي، فإذا مصباحٌ مترل الشافعيّ مُسْرَجٌ، فيصعدُ إليه، فإذا قرطاسٌ ودواة، قال الحميدي: فأقول: مه يا أبا عبد الله! فيقول: (تفكرتُ في معنى حديثٍ - أو في مسألةٍ - فخفتُ أن يذهبَ عليّ، فأمرتُ بالمصباح، وكتبته) (٣).

وفي ترجمة أبي الفرج ابن الجوزيِّ صاحب التصانيف الكثيرة أنه: (كان لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربع كراريس، ويرتفع له كل سنة من كتابته، ما بين خمسين مجلداً إلى ستين) (٤).

(١) (كيف يبني طالب العلم مكتبته، للخصير).

(٢) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (٤٠٤/١٢).

(٣) (آداب الشافعي ومنابعه، لابن أبي حاتم) (ص ٤٤، ٤٥).

(٤) (ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب) (٤١٢/١).

وقال سبطه: (إنه سمعه على المنبر في آخر عمره، يقول: كتبتُ  
ياصبعي هاتين، ألفي مجلدة<sup>(١)</sup>).

فائدة:

### ❖ الكتب الجامعة للفوائد:

دوّن كثيرٌ من العلماءِ فوائدَهم في كتبٍ مُفردةٍ، مثل:

- ١- (الفنون)، لابن عقيل، وهو من أضخم الكتب.
- ٢- (الفوائد العونية)، للوزير ابن هبيرة.
- ٣- (صيد الخاطر)، لابن الجوزي.
- ٤- (قيد الأوابد)، في (٤٠٠ مجلد)، للدعولي.
- ٥- (عيون الفوائد)، في (٦ أسفار)، لابن التّجّار.
- ٦- (بدائع الفوائد)، و(الفوائد)، لابن القيم.
- ٧- (التذكرة)، في (٥٠ مجلدا)، للكندي.
- ٨- (مجمع الفوائد ومنبع الفرائد)، في نحو (١٠٠ مجلد)، للمقريزي  
كالتذكرة له.
- ٩- تذكرة السيوطي في أنواع الفنون في (٥٠ مجلدا)، وغيرها كثير.

### ب- الحفظ:

قال العسكري: (الحفظ لا يكون إلا مع شدّة العناية، وكثرة  
الدرس، وطول المذاكرة. والمذاكرة حياة العلم، وإذا لم يكن درس، لم

(١) (ذيل طبقات الحنابلة) (١/٤١٠).

يكن حفظاً، وإذا لم تكن مذاكرة، قلت منفعة الدرس، ومن عوّل على الكتاب، وأخلّ بالدرس والمذاكرة، ضاعت ثمرة سعيه، واجتهاده في طلب العلم...

وأنشد النّظام قول محمد بن البشير:

أما لو أعبي كل ما أسمع      وأحفظ من ذاك ما أجمع  
ولم أستفد غير ما قد سمعت      لقل هو العالم المصقع  
ولكن نفسي إلى كل شيء      من العلم تسمعه تترع  
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت      ولا أنا من جمعه أشبع  
وأحضر بالصمت في مجلسي      وعلمي في الكتب مستودع  
ومن يك في علمه هكذا      يكن دهره القهقري يرجع  
إذا لم تكن حافظاً واعياً      فجمعك للكُتب لا ينفع  
وكان الخليل بن أحمد يقول: اجعل ما في كتابك رأس المال، وما في صدرك للنفقة.

وقال الزُّهري: إنَّ الرجلَ ليطلب، وقلبه شعبٌ من الشَّعاب، ثم لا يلبث أن يصير وادياً، ولا يوضع فيه شيءٌ إلا التَّهَمَةُ.  
يريد أن أولَ الحفظِ شديدٌ، يشقُّ على الإنسان، ثمَّ إذا اعتاده سهل، ومصداق ذلك ما أخبر به الشيخ أبو أحمد عن الصولي عن الحارث ابن أسامة قال: كان العلماء يقولون: كلُّ وعاءٍ أفرغت فيه شيئاً فإنَّه يضيق، إلا القلب، فإنَّه كلما أفرغ فيه اتَّسع.

وينبغي للدارس أن يرفع صوته في درسه، حتى يُسمع نفسه، فإنَّ ما سمعته الأذن، رسخ في القلب؛ ولهذا كان الإنسان أوعى لما يسمعه منه لِمَا يقرأه.

وحكي عن أبي حامدٍ أنه كان يقول لأصحابه: إذا درستم فارتفعوا أصواتكم؛ فإنه أثبت للحفظ؛ وأذهب للنوم. وكان يقول: القراءة الخفية للفهم، والرفيعة للحفظ والفهم. وكان ابن الفرات لا يترك كل يوم إذا أصبح، أن يحفظ شيئاً وإن قلَّ<sup>(١)</sup>.

(وقال الخليل بن أحمد: تكثّر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ. وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصّدْر)<sup>(٢)</sup>.

### ❖ للحفظ طريقتان ولكلٌّ منهما مميزاتهما وعيوبها:

#### (الطريقة الأولى):

وهي أنفع للصغار والشباب ومن أُوتي موهبة الحفظ: وهي بأن يُقرّر الطالب على نفسه لكل يوم جزءاً يسيراً من العلم، كأن يكون حديثاً، أو حديثين، أو أكثر، ويُستحسن أن يكون قدراً يسيراً، فإن القليل يثبت، والكثير لا يُحصّل؛ فيتحفظ هذا المقرّر يومياً، حتى يعييه في صدره. ويستمرُّ على ذلك فترةً طويلةً، هي سنواتُ طلبه للعلم، مع تعهّد الحفوظ دائماً.

(١) (الحث على طلب العلم، للعسكري، بتصرف) (ص ٦٧ - ٧٧).

(٢) (الحيوان، للجاحظ) (١/٥٨، ٥٩).

## الطريقة الثانية:

وهي أنفع لكبار السنّ ولمن لم يُؤتَ موهبةَ الحفظِ: وتتلخّصُ في إدمانِ مجالسةِ الكتبِ، وإدامةِ القراءةِ فيها، والجلدِ في ذلك والصبرِ عليه، مع الإكثارِ مِنَ النَّسْخِ والكتابةِ، وتعويدِ اليَدِ على ذلك<sup>(١)</sup>.

### ❖ من الأسباب التي يُستعانُ بها على الحفظِ:

#### – اجتنابُ المحرماتِ وتركُ المنهياتِ

قال ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: (إني لأحسبُ أنَّ الرَّجُلَ يَنْسَى العِلْمَ قد عِلِمَهُ بالذَّنْبِ يعمَلُهُ)<sup>(٢)</sup>.

وقال رجلٌ للإمامِ مالكٍ: (يا أبا عبدِاللهِ، هل يصلحُ لهذا الحفظِ شيءٌ؟ قال: إن كان يصلحُ له شيءٌ فتركُ المعاصي)<sup>(٣)</sup>.

#### – اغتنامُ الأوقاتِ المناسبةِ للحفظِ

رُوي أنَّ المنذرَ قال للنُّعمانِ ابنِهِ: (يا بُنَيَّ، أَحِبُّ لَكَ النَّظَرَ فِي الأَدبِ بالليلِ، فَإِنَّ القَلْبَ بالنهارِ طائرٌ، وبالليلِ ساكنٌ، وكَلِّمًا أوَعَيْتَ فِيهِ شيئاً علقَهُ).

قال الخطيبُ البغداديُّ معلقاً على هذه الوصيةِ: (إنَّما اختاروا المطالعةَ بالليلِ لخلوّ القلبِ، فإنَّ خلوّه يسرِّعُ إليه الحفظُ، ولهذا لما قيل لحمادِ بنِ زيدٍ: ما أعونُ الأشياءِ على الحفظِ؟ قال: قِلَّةُ الغمِّ).

(١) (نصائح منهجية، لحاتم العوني، بتصرف) (ص ٦٢، ٦٣).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (١/٦٧٥).

(٣) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (٢/٣٨٧).

وليس تكون قلة الغم إلا مع خلو السرّ وفراغ القلب، والليل أقرب الأوقات إلى ذلك<sup>(١)</sup>.

### – إحكام الحفظ بكثرة تكريره

قال ابن الجوزي: (الطريق في إحكامه كثرة الإعادة، والناس يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار، ومنهم من لا يحفظ إلا بعد التكرار الكثير. وكان أبو إسحاق الشيرازي، يُعيد الدرسَ مائة مرة، وكان الكيا الهراسي يُعيد سبعين مرة. وقال لنا الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه: لا يحصل الحفظ إليّ حتى يعاد خمسين مرة. وحكى لنا الحسن أن فقيهاً أعاد الدرسَ في بيته مراراً كثيرة، فقالت له عجوزٌ في بيته: قد والله حفظته أنا! فقال: أعيديه، فأعادته؛ فلما كان بعد أيام، قال: يا عجوز، أعيدي ذلك الدرس، فقالت: ما أحفظه، قال: إنّي أُكرّرُ عند الحفظ لثلاثين ما أصابك<sup>(٢)</sup>.

### – الجهر بقراءة ما يُراد حفظه

قال الزبير بن بكار: (دخل عليّ أبي وأنا أروي في دفترٍ ولا أجهر، أروي فيما بيني وبين نفسي، فقال لي: إنمّا لك من روايتك هذه ما أدّى بصرُك إلى قلبك فإذا أردت الرواية فانظر إليها واجهر بها؛ فإنّه يكون لك

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (٢/٤٠٠ - ٤٠١).

(٢) (الحث على حفظ العلم، لابن الجوزي) (ص ٢١).

ما أَدَّى بصرُكَ إلى قلبِكَ، وما أَدَّى سمْعُكَ إلى قلبِكَ<sup>(١)</sup>.

### ❖ سعة حفظ بعض العلماء:

كان أبو رأسٍ العسكريّ - محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ القادرِ الجزائريّ (ت: ١٢٣٩) - يُذكرُ بقوةَ حافظتِه، وسعةِ اطلاّعِه، وأنّهم بسببِ ذلك، وحُكي (أنَّ جماعةً من تلاميذِه تذاكروا في قوّة حافظتِه وكأنّهم أنّهم بالاختلاقِ، فركّبوا اسماً نطقَ كلُّ واحدٍ منهم بحرفٍ منه، وجعلوه اسماً للملكِ، وسألوا الشيخَ عنه، فأملَى لهم ترجمته، وسيرته وأعماله، فاتَّفَقوا أنَّ الشيخَ كاذبٌ!!).

ولمَّا طالتِ المدة، وقَفَ أحدهم على الاسمِ والسيرةِ في كتابٍ تاريخيٍّ على نحوِ ما كانَ أملاه الشيخُ أبو رأسٍ عليهم، فعلموا أنَّ الشيخَ صادقٌ، وهم مُقَصِّرُونَ مُتَّهِمُونَ الشيخَ ممَّا هو منه بريءٌ. قال الكتاني: وهذه حالة كبارِ الحفاظِ مع القاصرينَ والجاهلينَ<sup>(٢)</sup>.

### ❖ ج- المذاكرة:

قال الخطيبُ: (ينبغي أن يتذاكرَ مواظبو مجلسِ الشيخِ ما وقع فيه من الفوائدِ، والضوابطِ، والقواعدِ، وغير ذلك، وأن يُعيدوا كلامَ الشيخِ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرةِ نفعاً عظيماً، وتكونُ المذاكرةُ عندَ القيامِ من مجلسِه قبلَ تفرُّقِ أذهانِهم، وتشتتِ خواطِرِهم، وشذوذِ بعضِ ما سمعوه عن أفهامِهم ... وأفضلُ المذاكرةِ مذاكرةُ الليلِ، فإن لم يجدِ الطالبُ من

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (٤٠٢/٢).

(٢) (فهرس الفهارس، للكتاني) (١٥١/١).

يذاكره، ذاكر نفسه بنفسه، وكرّر معني ما سمعته، ولفظه على قلبه؛ ليعلق ذلك على خاطره؛ فإن تكرر المعنى على القلب، كتكرار اللفظ على اللسان، سواء بسواء، وقل أن يفلح من يقتصر على الفكر والتعقل، بحضرة الشيخ خاصة، ثم يتركه ويقوم، ولا يعاوده<sup>(١)</sup>.

وعن علي بن الحسن بن شقيق قال: (قمت مع ابن المبارك ليلة باردة، ليخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، وذاكرته، فما زال يُذاكرني، حتى جاء المؤذن، فأذن للفجر)<sup>(٢)</sup>.

وعن عطاء قال: (كنّا نكون عند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث)<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الله بن المعتز: (من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم)<sup>(٤)</sup>.

عن عبد العزيز بن أبي حازم، قال: (قال أبي: كان الناس فيا مضى من الزمان الأول إذا لقي الرجل من هو أعلم منه قال: اليوم يوم غنمي. فيتعلم منه، وإذا لقي من هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي. فيذاكره، وإذا لقي من هو دونه علمه، ولم يزه عليه، حتى صار هذا الزمان، فصار الرجل

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف (ص ١٤٣ - ١٤٥).

(٢) تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/٢٧٧).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (١/٣٦٥).

(٤) المصدر السابق (٢/٤١٥).

يَعِيبُ مَنْ فَوْقَهُ ابْتِغَاءً أَنْ يَنْقَطَعَ مِنْهُ حَتَّى لَا يَرَى النَّاسُ أَنْ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ،  
وَإِذَا لَقِيَ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ لَمْ يُذَاكِرْهُ، فَهَلَكَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وعن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ  
قال: ((إِنَّمَا مِثْلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمِثْلِ صَاحِبِ الْإِبْلِ الْمَعْقَلَةِ، إِنْ عَاهَدَ  
عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ))<sup>(٢)</sup>.

قال الحافظُ ابنُ عبدِ البرِّ: (وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ مَنْ لَمْ  
يَتَعَاهَدْ عِلْمَهُ ذَهَبَ عَنْهُ أَيَّ مَنْ كَانَ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتَ الْقُرْآنَ  
لَا غَيْرَ، وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْمَيْسِرُ لِلذِّكْرِ يَذْهَبُ إِنْ لَمْ يَتَعَاهَدْ، فَمَا ظَنُّكَ  
بغيرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمَعْهُودَةِ؟! وَخَيْرُ الْعُلُومِ مَا ضُبِطَ أَصْلُهُ، وَاسْتُذَكِرَ فَرْعُهُ،  
وَقَادَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَدَلَّ عَلَى مَا يَرْضَاهُ)<sup>(٣)</sup>.

### ❖ الوسائلُ المعينةُ لطالبِ العلمِ:

- (أَنْ يُقَلِّلَ مِنْ نَوْمِهِ، مَا لَمْ يَلْحَقْهُ ضَرَرٌ فِي بَدَنِهِ وَذَهْنِهِ، وَلَا يَزِيدُ  
فِي نَوْمِهِ عَنْ ثَمَانِ سَاعَاتٍ، إِنْ احْتَمَلَ حَالَهُ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَعَلَّ.

- أَكَلُ الْقَدْرِ الْيَسِيرِ مِنَ الْحَلَالِ؛ فَكَثْرَةُ الْأَكْلِ جَالِبَةٌ لكَثْرَةِ  
الشَّرْبِ، ثُمَّ كَثْرَةُ النَّوْمِ، وَحُصُولُ الْبِلَادَةِ، وَقُصُورُ الذَّهْنِ، وَفَتْوَرُ الْحَوَاسِّ،  
وَكَسَلُ الْجِسْمِ.

(١) (المصدر السابق) (٢/٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣١) ومسلم (٧٨٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) (التمهيد، لابن عبد البر) (١٤/١٣٣-١٣٤).

قال القحطاني في نُؤيَّته:

لا تحشُّ بطنك بالطعامِ تَسْمُناً  
 لا تتبَّعْ شهواتِ نفسِكَ مُسْرِفاً  
 فأقلِّ طعامَكَ ما استطعتَ فإنَّه  
 وأملكُ هواكَ بضبطِ بطنك إنَّه  
 فجُسُومُ أهلِ العِلْمِ غيرُ سَمَّانِ  
 فاللهُ يُبغِضُ عابداً شهوانِي  
 نفعُ الجُسُومِ وصحةُ الأبدانِ  
 شرُّ الرِّجالِ العاجزُ البطنانِ

- أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شؤونه، ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله؛ ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به.

قال عبد الله بن المبارك:

يا طالبَ العِلْمِ بادِرِ الوَرَعَا وَهاجِرِ النَّوْمِ وَهاجِرِ الشُّبَعَا

- ألا يخالط في الغالب إلا من يفيدُه أو يستفيدُ منه.

قال الزرنوجي: (وأما اختيار الشريك فينبغي أن يختار المجتهد، والورع، وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم، ويفر من الكسلان، والمعطل، والمكثار، والمفسد، والفتان)<sup>(١)</sup>.

١١ - الاهتمام بعلم الحديث:

❖ أهمية تعلم علم الحديث

لله درُّ القائل:

(دينُ النبيِّ محمدٍ أخبارٌ نَعَمَ المطيئةُ للفتى الآثارُ

(١) (من هدي السلف في طلب العلم، محمد بن مطر الزهراني، بتصرف) (٥٠-٥٤).

لا ترغبنَّ عنِ الحديثِ وأهله  
ولربِّما غلطَ الفتى سبيلَ الهدى  
فالرأيُ ليلٌ والحديثُ نهارٌ  
والشمسُ بازغةٌ لها أنوارٌ<sup>(١)</sup>

وأحسنَ مَنْ قال:

دينُ الرسولِ وشرعُه أخبارُه  
مَنْ كانَ مشتغلاً بها وبنشرها  
وَأجلُ علمٍ يُقتنى آثارُه  
بينَ البريةِ لا عفتُ آثارُه<sup>(٢)</sup>

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً))<sup>(٣)</sup>. وحسنه غيرُ واحدٍ.

قال ابنُ حبانَ بعدَ إخراجِه هذا الحديثَ في صحيحِه: (في هذا الخبرِ دليلٌ على أنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقِيَامَةِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ؛ إذْ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ أَكْثَرَ صَلَاةً عَلَيْهِ مِنْهُمْ)<sup>(٤)</sup>.

وعلى طالبِ العلمِ (أنَّ يَكْرَهُ بِسْمَاعِ الْحَدِيثِ، وَلَا يَهْمَلُ الْإشْتِغَالَ بِهِ، وَبِعُلُومِهِ، وَالنَّظَرَ فِي إِسْنَادِهِ، وَرِجَالِهِ، وَمَعَانِيهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَفَوَائِدِهِ، وَلُغَتِهِ، وَتَوَارِيخِهِ، وَيَعْتَنِي بِمَعْرِفَةِ أَنْوَاعِهِ، صَحِيحِهَا، وَحَسَنِهَا، وَغَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ أَحَدُ جَنَاحِي الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ، الْمُبِينُ لكَثِيرٍ مِنَ الْجَنَاحِ الْآخَرِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَلَا يَقْنَعُ بِمَجْرَدِ السَّمَاعِ، بَلْ يَعْتَنِي بِالدَّرَايَةِ أَشَدَّ مِنْ اعْتِنَائِهِ

(١) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (ص٧٦).

(٢) (البلدانيات، للسخاوي) (ص٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٨٤).

(٤) (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، لابن بلبان) (٣/١٩٢، ١٩٣).

بالرواية؛ لأنَّ الدرايةَ هي المقصودُ بنقلِ الحديثِ، وتبليغِهِ<sup>(١)</sup>.

قال أبو حاتمٍ: (قال لي أبو زُرْعَةَ: ما رأيتُ أحرصَ على طلبِ الحديثِ مِنْكَ، فقلتُ له: إنَّ عبدالرحمنَ ابني لحريصٌ. فقال: مَنْ أشبهَ أباهُ فما ظلم). قال الرقَّامُ: (فسألتُ عبدالرحمنَ عن اتِّفاقِ كثرةِ السماعِ له، وسؤالاتِهِ لأبيه، فقال: رَبَّما كان يأكلُ وأقرأُ عليه، ويَمْشِي وأقرأُ عليه، ويدخلُ الخلاءَ وأقرأُ عليه، ويدخلُ البيتَ في طلبِ شيءٍ وأقرأُ عليه)<sup>(٢)</sup>.

### – الحديثُ بين الروايةِ والدرايةِ:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (كره مالكٌ، وابنُ إدريسَ، وغيرُهما الإكثارَ مِنْ طلبِ الأسانيدِ الغريبةِ، والطرقِ المستنكرة... مما يتَّبَعُ أصحابُ الحديثِ طرقَه، ويُعَنَوْنَ بجمعه؛ والصحيحُ مِنْ طرقِه أقلُّها، وأكثرُ مَنْ يجمعُ ذلكَ الأحداثُ منهم، فيَحْفَظُونها، ويذاكِرُون بها، ولعلَّ أحدهم لا يعرفُ مِنَ الصحاحِ حديثاً، وتراه يذكرُ مِنَ الطرقِ الغريبةِ، والأسانيدِ العجيبةِ، التي أكثرُها موضوعٌ، وجلُّها مصنوعٌ، ما لا ينتفعُ به، وقد أذهبَ مِنْ عمرِه جزءاً في طلبِه، وهذه العلةُ هي التي اقتطعتْ أكثرَ مَنْ في عصرِنا مِنْ طلبَةِ الحديثِ عن التفقُّهِ به، واستنباطِ ما فيه مِنَ الأحكامِ، وقد فعَل متفقهُةُ زمانِنا كفعالهم، وسلَكُوا في ذلكَ سبيلهم، ورغبوا عن سماعِ السننِ مِنَ المحدثينَ، وشغَلوا أنفُسَهُم بتصانيفِ المتكلمينَ، فكِلا الطَّائِفَتَيْنِ

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص ١٢٦ - ١٣٣).

(٢) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (١٣/٢٥٠، ٢٥١).

ضَيِّعَ مَا يَعْنِيهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ<sup>(١)</sup>.

### – الحديث بين حفظ الرواية والرعاية:

قال الشيخ بكر أبو زيد: (وَلِيَحْذَرُ أَنْ يَجْعَلَهُ سَبِيلًا إِلَى نَيْلِ الْأَعْرَاضِ، وَطَرِيقًا إِلَى أَخْذِ الْأَعْوَاضِ، فَقَدْ جَاءَ الْوَعِيدُ لِمَنْ ابْتَغَى ذَلِكَ بِعَلْمِهِ.

وَلِيَتَّقِ الْمَفَاخِرَةَ وَالْمَبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلْبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ الرَّئِاسَةِ، وَأَتِّخَاذَ الْأَتْبَاعِ، وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ؛ فَإِنَّ الْآفَةَ الدَّاخِلَةَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَلِيَجْعَلَ حِفْظَهُ لِلْحَدِيثِ حِفْظَ رِعَايَةٍ لَا حِفْظَ رَوَايَةٍ؛ فَإِنَّ رَوَاةَ الْعُلُومِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهَا قَلِيلٌ، وَرُبَّ حَاضِرٍ كَالْغَائِبِ، وَعَالِمٍ كَالْجَاهِلِ، وَحَامِلٍ لِلْحَدِيثِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ؛ إِذْ كَانَ فِي اطِّرَاحِهِ لِحْكَمِهِ بِمِثْلَةِ الذَّاهِبِ عَنِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ<sup>(٢)</sup>.

### ١٢ – الأدب مع المعلم:

(قال الشافعيُّ: كُنْتُ أَصْفَحُ الْوَرَقَةَ بَيْنَ يَدَيَّ مَالِكٍ صَفْحًا رَفِيقًا؛ هَيْبَةً لَهُ، لَثَلَا يَسْمَعُ وَقَعَهَا.

وقال الرَّبِيعُ: وَاللَّهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالشَّافِعِيَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ<sup>(٣)</sup>.

(١) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (١٣٠، ١٢٩).

(٢) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص ٣٨).

(٣) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة) (ص ٨٨).

وذكر الخطيب أن علي طالب العلم (أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق، ولا يصدّه ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة مما وقع والاستغفار، وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب عليه؛ فإن ذلك أبقى لمودة شيخه، وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته.

اصبرٍ لدائك إن جفوت طبيبه واصبرٍ لجهلك إن جفوت معلمًا.

وأن يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه، أو قصور يعاينه أو غير ذلك مما في إيقافه عليه وتوبيخه، إرشاده وصلاحه، ويعد ذلك من الشيخ من نعم الله تعالى عليه باعتناء الشيخ به ونظره إليه، فإن ذلك أمثل إلى قلب الشيخ وأبعث على الاعتناء بمصالحه<sup>(١)</sup>.

قال أبو هلال العسكري: (وجعل الحكماء مترلة العلماء مثل مترلة الملك فقالوا: من أدب الداخل على العالم، أن يُسلم على أصحابه عامّةً، ويخصّه بالتحية، ويجلس قدامه، ولا يشير بيده، ولا يغمز بعينه، ولا يقول بخلاف قوله، ولا يغتاب عنده أحداً، ولا يُسارّ في مجلسه، ولا يلح عليه إذا كسل، ولا يُعرض عن كلامه، فإنّه بمترلة النخلة، لا يزال يسقط عليك منها شيء ينفعك)<sup>(٢)</sup>.

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص ٩١ - ٩٣).

(٢) (الحث على طلب العلم، للعسكري) (ص ٨٤).

قال الشيخ بكر أبو زيد: (فليكن شيخك محلَّ إجلالٍ منك وإكرامٍ وتقديرٍ وتلطفٍ، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، متجنباً الإكثار من السؤال، ولا سيما مع شهود الملاء، فإن هذا يُوجب لك الغرور وله الملل...)<sup>(١)</sup>.

### ❖ بم تكون القدوة؟

قال الشيخ بكر أبو زيد: (القدوة بصلاح أخلاقه وكريم شمائله، أما التلقي والتلقين فهو ربح زائد، لكن لا يأخذك الاندفاع في محبة شيخك فتقع في الشناعة من حيث لا تدري، وكل من ينظر إليك يدري، فلا تقلده بصوتٍ ونغمةٍ، ولا مشيةٍ وحركةٍ وهيئةٍ، فإنه إنما صار شيخاً جليلاً بتلك، فلا تسقط أنت بالتبعية له في هذه)<sup>(٢)</sup>.



(١) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص ٢٥).

(٢) (المصدر السابق) (ص ٢٧).